الحملة الجنوية على طرابلس الغرب

سنة (755 هـ / 1354 م)

د. رمضان المبروك خليفة الصيد
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة الفاتح

مقدمة :

تعتبر مدينة طرابلس ذات موقع جغرافي هام وذلك بين المشرق العربي الإسلامي ومغربه خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلادي ، حيث كانت تمر عبرها الجيوش العربية في حالة الهجوم وحالة الرجوع وتحمل عن طريقها قوافل لا تحمل سلعاً فقط بل كان يصحبها الحجيج ورجال العلم والآداب فكان لكل ذلك أثره في مدينة طرابلس ، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الفكرية أو الدينية ، لذلك فإن مدينة طرابلس بحكم موقعها قد اجتذبت حكام الدول والإمارات ، وبين هؤلاء رو جر (**رُجار**) الثاني ملك صقلية الذي قام بحملة عسكرية على طرابلس سنة 541 هـ / 1146 م ، وتمكنه من الاستيلاء عليها ، وفي سنة 755 هـ / 1354م قامت مدينة جنوا بحملة عسكرية على مدينة طرابلس ، لأنها كانت ذات أهمية كبيرة يؤهلها موقعها البحري وتحكمها بطرق القوافل الصحراوية لان تكون مركزاً تتجه إليه الأنظار من قبل حكام جزيرة صقلية وحكام المدن الإيطالية .

بالإضافة إلى ما سبق تعتبر مدينة طرابلس إحدى موانى إفريقية الهامة ، وكان يصدر

منها جزء لا يستهان به من منتوجات قلب القارة الإفريقية ، وكانت علاقاتها بالسلطة المركزية الحفصية في تونس منذ بداية عهد الفوضى والفتن في مدا وجزر ، يقر ولاءها بتبعيتهم للسلطان الحفصي تارةً وينكرونها تارةً أخرى .

الوضع السياسي لمدينة طرابلس قبل الحملة الجنوية :-

لقد كانت طرابلس خلال القرون الأخيرة من العصور الوسطى تمثّل أقصى مدينة من مدن إفريقية نحو مصر ، وكانت في الوقت نفسه محطة للمسافرين عن طريق البّر ومحطّة لتوقف السفن التي كانت تقطع المسافة الطويلة الفاصلة بين المشرق والمغرب العربيين .وقد كانت مركز إقليم وشبه عاصمة إقليمية في عهد الموحدين والحفصيين ولكنها استطاعت أن تعيش مستقلةً خلال أكبر فترة من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، مثل غيرها من المدن التابعة لإفريقية(1) .

اقتنع أهل طرابلس بأن الدولة الحفصية قد أصبحت أضعف من أن يعتمد على حمايتها ، ولكنهم كانوا يعلمون أيضاً أن فرصة إقامة جيش قوي خاص بهم قد فاتت نظراً لأنهم اعتمدوا على حماية الموحدين ثم الحفصيين لمدة طويلة انصرفوا خلالها عن العمل العسكري إلى العمل الاقتصادي والحياة المدنية (2).

إذن فإنه لم يبقَ أمامهم والحالة هذه إلا أن يحصنوا سور المدينة فاخذوا في ترميمه وبدأوا يحفرون خندقاً حوله يصل من جانبه إلى البحر ويملأ إذا داهمهم عدو من جهة البر . وعندما زار التجاني مدينة طرابلس سنة 707 هـ / 1307 م كان أهلها لا يزالون يعملون في حفر الخندق المذكور ، وقد لاحظ التجاني عناية أهل طرابلس بترميم سورها فقالَ : " **ورأيت بسورها من الاعتناء ، واحتفال البناء ، ما لم أرهُ لمدينة سواها ، وسبب ذلك أن لأهلها حظاً من مجباها ، يصرفونه في رمّ سورها ، وما تحتاج إليه من**

1- روبار برخشفيك , تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م , نقلة إلى العربية حمادي الساحلي , جـ1 , دار الغرب الإسلامي بيروت , ص 424 .

2-عبد اللطيف محمود البرغوثي , تاريخ ليبيا الإسلامي (من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني) , منشورات الجامعة الليبية , دار صادر , بيروت , 1972 , ص 395 .

مهام أمورها فهم لا يزالون أبداً يجددون البناء فيه ، ويتداركون تلاشيه بتلافه ، ورايتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع يرمون أن يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد ..." (3) . يبدو أن أهل طرابلس اكتفوا بأن يجعلوا الخندق المشار إليه يحيط بالقلعة فقط لأن زيادة منعة القلعة زيادة في منعة المدينة .

كما يبدو أن أهل طرابلس حاولوا أن يرفعوا عن مدينتهم كابوس تهديد الغزاة للمدينة من البحر وتهديد القبائل البدوية من بني هلال وبني سليم من البر بالاتفاق حول كل مُغامر يظهر على المسرح الطرابلسي ، بأمرين : الأول هو الإجراء الوقائي الدفاعي الذي أشرنا إليه والمتمثل في ترميم الصور وزيادة منعته بحفر خندق من حوله وحول المدينة يتصل بالبحر من جهتيه ، والثاني هو أخذ زمام المبادرة وتحويل طرابلس إلى قلعة تنطلق منها القوة لمهاجمة المناطق الأخرى بدلا من أن تظل تتلقى الهجمات على حوزتها هي .

وفي مطلع سنة 709 هـ / 1309 م سنحت الفرصة لتحقيق الأمر الثاني بنزول الأمير الحفصي أبي يحيى زكريا بن أحمد اللحياني بطرابلس في طريق عودته من الحج وكان هذا الأمير الحفصي قد أقام في طرابلس بين سنتي (707 - 708 هـ / 1307 - 1308 م) وكسب أثناء إقامته احترام أهل طرابلس لهُ ثم سافر إلى الحج في أواخر سنة 708 هـ - 1308 م . فلما نزل بطرابلس عائداً من الحج وعلم بما كان يسود تونس من اضطراب ونزاع على السلطة طمعت نفسه إلى الدعوة لشخصه ولاقت الفكرة هوى في نفوس أهل طرابلس لاتفاقها مع مصالحهم فبايعوه والتفت حوله القبائل البدوية وفي مقدمتهم أولاد أبي الليل من الكعوب من بني سليم (4) . وكان الملى أبو بكر بن يحيى بن أبي زكريا الحفصي ، عامل قسنطينة ، قد بايع لنفسه بها لما سمع باختلال أحوال إفريقية

3- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني ، رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس 1981 ، ص 238 .

4- إحسان عباس ، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، دار صادر ، بيروت 1967 ،ص 202 - 203 . والطاهر أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1968 ، ص 256 - 1257 .

على أخيه أبي البقاء خالد بن يحيى فكاتب الحياني بطرابلس و أرسل إليه هدية مناسبة مع حاجبه أبي عبد الرحمن بن عمر وتظاهر بأنه سيؤيده في الاستيلاء على عاصمة الحفصيين إن أراد ، بينما كان غرضه الحقيقي تسخير اللحـــياني في التخلص من خصومة أخيه أبي البقاء . واستجاب اللحياني لهذا الإغراء لأنه جاء متفقاً مع خطته وخطة أهل طرابـــلس التي أصبحت مقراً له فأرسل الشيخ أبا عبد الله المزدوري ، شيخ دولته ، على راس جمع من القبائل العربية (**بني هلال وبني سليم**) إلى تونس فوصلوها يوم الخميس التاســـع من جمادى الأولى سنة 711 هـــ / 1311 م وتمكنوا من دخولها بـــعد معركة قُتل فيها : " **شيخ الدولة أبو زكرياء الحفصي , وتسارع الناس للمزدوري ومكنوه من تونس** " (5) . ولكن المولى أبا بكر بن يحيى لم يرق له تطور الأحداث لصالح اللحـــياني لأنه كان يريد الأمر لنفسه ولذلك فإنه ثار على اللحياني ورأى اللحـــياني أنه عاجز عن القـــيام بالحرب وإدارة دفة الحكم لكبر سنه فبدأ يستعين ببعض رؤساء القبائل البدوية من عرب بني هلال وبني سليم فلم يزد أمره إلا اضطراباً فرأى من الحكمة الرجوع إلى طرابلس ، : " **فجمع من تونس أموالاً كثيرة ، قالوا إنها تربو على عشـــرين قـــنطاراً وجوالين من حصى الذر والياقوت . وأناب عنه في تونس محمد بن عمران*** ورجع إلى طرابـــلس سنة **717 هـــ [1317 م] وبنى فيها قصرا عظيماً سماه (الطارمة) وهو يقع تحت السور القبلي مما يلي البحر ، وقد بناه بالجليز [أي البـــلاط القيشـــاني المزخرف] والرخام**" (6) . وبعد أن استقر اللحياني بطرابلس مرة ثانية جمع حوله شـــيوخ القبـــائل البدوية من بني هلال وبني سليم ومنهم محمد بن يعقوب وهجرس بن مرغم بن صابـــر

5- أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي ,تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية, ط2 , تحقـــيق وتعليق محمد ماضور , المكتبة العتيقة , تونس 1966 , ص 165 - 166 . وانظر أيضاً : إحسان عباس , ومحمد بحم , ليبيا في كتب التاريخ والسير , دار ليبيا , بنغازي 1968 , ص 192 - 193 .

*- هو من نسل أبي عمران بن إبراهيم بن الشيخ أبي حفص . استخلفه اللحياني على تونس ولكنه لم يلبث أن التحق بطرابلس لما بايع الموحدون وبني هلال وبني سليم أبا ضربة اللحياني سنة 717 هـــ / 1317 م .

انظر : الوغولي , المرجع السابق , ص 397 هامش 3.

6- الزاوي , المرجع السابق , ص 257 - 258 , الزركشي , المصدر السابق , ص 65 .

الذي تولى زعامة قومه المراغمة الوشاحين بعد وفاة أبيه . وانضم إلى اللحياني كذلك آل سالم وال سليمان من عرب دبداب فكثرت جموعه وكوّن منها جيشاً :" **بقيادة أبي عبد الله بن يعقوب ففتح كثيراً من المدن الليبية حتى بلغ برقة ، وفرض الضرائب وأقام سلطة حفصية – مستقلة – في أكثر أرجاء ليبيا** " (7) .

وفي منتصف شهر شعبان سنة 717 هـ / 1317 م بايع الموحدون وعرب بني هلال وبني سليم أبا ضربة محمد بن زكريا اللحياني بالإمارة وتلقب بالمنتصر . ولكن أبا بكر ، صاحب قسنطينة ثار عليه في السنة التالية فاستنجد أبو ضربة بوالده صاحب طرابلس فأمده بجيش يقوده وزيره أبو زكريا بن يعقوب كما أمده بأموال طائلة فرقها على القبائل العربية المناصرة له ، ولكنه انهزم أمام أبي بكر ففر إلى أبيه بطرابلس واستنجده من جديد فأمده بالمال والرجال وجمع له جيشاً كبيراً من بني سليم وبني هلال فسار بهم أبو ضربة عبر الأراضي التونسية حتى بلغ موقع فج النعام الذي يسمى أيضاً فج القيروان وهناك التقى بهم أبو بكر بقواته ووقعت معركة بين الفريقين سنة 718 هـ / 1318 م انهزم فيها أبو ضربة وجيشه فلجأ إلى المهدية التي كانت لا تزال على ولائها لأبيه وامتنع بها السلطان أبو بكر فنازله أبو بكر حيناً ثم أقلع عن المهدية على سلم عقده لأبي ضربة (8).

فلما بلغت أنباء هزيمة أبي ضربه إلى مسامع والده في طرابلس أدرك الأخير أنه لا قبل له في شيخوخته بمشاكل الحكم ومكارهه . وتأكدت هذه الفكرة في ذهنه عندما اضطرب عليه جنده أنفسهم ولذلك قرر الرحيل عن طرابلس :" **وبعث إلى النصارى في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوفوه بستة أساطيل ، فاحتمل أهله وولده وركب البحر ، ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية ، واستخلف على طرابلس**

7- إحسان عباس , تاريخ ليبيا , ص 203 . انظر أيضاً : ابن خلدون , العبر , جـ 6 دار الكتب العلمية , بيروت 1992 , ص 537 .

8- ابن خلدون , المصدر نفسه , جـ6 , ص 537 - 538 . وإحسان عباس ومحمد نجم , ليبيا في كتب التاريخ والسير , ص 152 .

أبا عبد الله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره ... وركب السلطان أبو يحي بن اللحياني البحر [سنة 718 هـ / 1318 م] إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاوون [من الحكام المماليك] بمصر والشام ، فاستقدمه إلى مصر، فعظم من مقدمه وأهتز للقائه ونوّه من مجلسه و أسنى من جرايته وإقطاعه إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين [728 هـ] "(9) .

أما طرابلس فقد تولى الحكم فيها بعد رحيل اللحياني عنها أبو عبد الله محمد بن أبي عمران ، صهر اللحياني وقريبه . واجتمع حوله مشايخ القبائل العربية من بني هلال وبني سليم المقيمة حول طرابلس وفي مقدمتهم حمزة بن أبي الليل وشجعوه على مهاجمة تونس فشكل منهم جيشاً أغار به على مدينة تونس سنة (721 هـ / 1321م) وطرد منها أبا بكر بن أبي زكريا وظل يحكمها إلى أوائل سنة (723 هـ/ 1323 م) عندما زحف عليه أبو بكر وأخرجه منها . بعد ذلك رجع بن أبي عمران إلى طرابلس ولكنه وجد أهلها قد تغيروا عليه وقاموا بثورة ضده سنة 724 هـ / 1324 م وطردوه من طرابلس فلحق بالقبائل العربية خارجها وأغار بهم على تونس مراراً ولكنه كان ينتهي دائما بالفشل لتخلي بني هلال وبني سليم عنه فلما يئس من الانتصار لحق بتلمسان حيث حل ضيفاً على أبي تاشفين وبقي عنده (10).

مع بدء عهد بني ثابت بن عمار(11) في طرابلس كان قد مضى على هجرة بني هلال وبني سليم مالا يقل عن ثلاثة قرون وهي مدة كافية لاستقرار عدد غير قليل من أبناء تلك القبائل وتحويلهم من حياة البدو والترحال إلى حياة الزراعة والتمدن والاستقرار .

9- ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 537 . وانظر أيضا: إحسان عباس ومحمد نجم , ليبيا في كتب التاريخ والسير , ص 151 , الزركشي المصدر السابق , ص 65 .

10- الزاوي , المرجع السابق , ص 259 .

11- أن الجد الأعلى لهذه الأسرة هو الأمير ثابت بن عمار وولي بعده بالترتيب محمد وثابت وأبو بكر والأمير علي ويحيى وعبد الواحد وأنه انحدر من هذه الأسرة ما بين (724 - 803 هـ / 1324 - 1400 م) ستة عشر أميراً . انظر : عزيز سامح , الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية , الجزء الأول , ترجمة عبد السلام ادهم , (بدون دار نشر أو مكان النشر) , 1969 , ص 21 . وعبد اللطيف البرغوثي , المرجع السابق ص 339 ,هامش 3 , الطاهر الزاوي , المرجع السابق , ص 260 .

وأصبحت هذه الأسر التي استقرت على هذا النحـــو تعتمد في أمجادها على ركيزتين أساسيتين : الثروة ونقاء النسب العربي (12). وتأتي أسرة بني ثابت في المقدمة فهم ينتمون إلى قبيلة الجواري من وشاح بن عامر بن ذياب بن مالك بن سليم حـــيث اســـتوطنوا طرابلس وما حولها مثل تاجوراء وجنزور منذ ســـنة 442 هـــ / 1050 م . وفي مطلع القرن الثامن الهجري كانت أسرة بني ثابت قد تمدنت واستقرت داخل مدينة طرابـــلس نفسها وأخذت تمارس التجارة ممّا أكسبها ثروة طائلة (13). والواقع أن هذه الأسر العربية من أمثال أسرة بني ثابت اجتمع لديها المال والدم فقوى ذلك من طبيعتها المبنية على عدم الخضوع للسلطة ولذلك فإنها كانت مصدر شغب وإزعاج دائم للدولة الحفصية حـــتى تقلص نفوذها عن طرابلس و قابـــس :" **فاستبدّ [بـــنو هلال] برئاســـة ضواحـــيها واستعبدوا سائر الرعاية المعتمرة في جبالها وبسائطها ، واستبدّ أهل الأمصار برئاســـة أمصارهم بنو مكّي [من المحاميد] بقابس ، وبنو ثابت بطرابلس ... وانقسمت رئاسة أولاد وشـــاح بانقســـام المصرين ، فتولّى الجواري طرابـــــلس وضواحـــــيها وزنزور [جنـــــــزور] وغريان ومغر ، وتولى] أبناء عمومتهم [المحاميد بلد قابس وبلاد نفوسة وحرب** " (14).

سار ثابت بن محمد بن ثابت في الناس سيرة حسنة بطرابلس وبقي والياً عليها حتى وفاته سنة 730 هـــ / 1330 م إلا أن المصادر التاريخية لم تذكر أية تفاصيل عن فترة توليه أمر طرابلس.

وقد ولى طرابلس بعده ابنه محمد (730 - 750 هـــ / 1330 -1349 م) الذي نعمت مدينة طرابلس في عهده بقدر كبير من الاستقرار ، ونشطت تجارتها ، الأمر الذي وفر لأهلها قدراً من الرخاء . حتى كان وباء الموت الأسود فأصابها ما أصاب غيرها من

12- إحسان عباس , تاريخ ليبيا , ص 205 .

13- الطاهر الزاوي , المرجع السابق , ص 260 .

14- ابن خلدون , العبر , جـــ6 , دار الكتب العلمية , بيروت 1992 , ص 100 - 101 . إحسان عباس ومحمد نجم ,المرجع السابق , ص 126 .

بلدان أفريقية من كثرة الأموات وتردت الأوضاع الاقتصادية . كما غزا محمد بن ثابت أبن محمد جزيرة جربة بأسطول كبير وحاصرها حصاراً شديداً شاقاً حتى افتتحها وضمها إلى طرابلس . وضلت تابعة له حتى تولى السلطة بتونس عمر بن أبي بكر الحفصي سنة (747 هـ / 1346 م) فأرسل لجربة جيشاً بقيادة أخيه الفضل فخاض إليها مياه البحر الضحلة التي كانت تفصلها عن البر ووصل سورها وحاصرها حتى أرغم قوات محمد بن ثابت عن التخلي عنها والعودة إلى طرابلس(15) .

وتوفى محمد بن ثابت بن محمد في سنة (750 هـ/ 1349 م) فخلفه ابنه ثابت في حكمه , فأعلن استقلاله عن الدولة الحفصية وفي ذلك يقول ابن خلدون :" ... **ومرت الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليه من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمائة منقطعاً عن الحاضرة** " (16) . وفي عهده هاجم الجنويون طرابلس واستولوا عليها .

كان تجار جنوة الإيطاليون كثيري التردد على طرابلس في رحلاتهم التجارية ، لأن طرابلس كانت من أكبر الأسواق لتجارتهم . وبسبب هذه العلاقة التجارية النشطة كان الجنويون يعرفون أحوال طرابلس معرفة دقيقة . فلما أل أمرها إلى ثابت الثاني ،بَيّتَ الجنويون النية لغزوها وأعدوا لها من الجند والسفن ما يكفي لتحقيق غايتهم . وفي عشرة ربيع الأخر سنة 755 هـ / 1354 م على وجه التحديد شنت جنوة عدوانها الغادر على طرابلس بقيادة فيليب دورية الجنوي (17) . وقدموا إليها في زي التجار فرست سفنهم في مينائها وراسلوا من بها من الإفرنج وأقنعوهم في الدخول معهم في خطتهم .

وتجمع المصادر التاريخية الإسلامية التي تعرضت لحوادث هذا العدوان أن الجنويين اتبعوا في غزو طرابلس أسلوباً جديداً هو مخادعة حكامها وأهلها حتى تمكنهم الفرصة من

15- الطاهر الزاوي , المرجع السابق , ص 261 . , ممدوح حُسين , الحروب الصليبية في شمال إفريقية (668 - 798 هـ / 1270 - 1390 م) , دار عمار , عمان - الأردن , 1998 , ص 503 .

16- ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 538 .

17- محمود ناجي , تاريخ طرابلس الغرب , ترجمة عبد السلام أدهم ومحمد الأسطى , منشورات الجامعة الليبية - كلية الآداب , بنغازي 1390 هـ/ 1970 م , ص 145 .

مفاجأتها , فما يفهم من رواية ابـــن خلدون الذي يقـــــول إنهم تامروا على غزوها : " **فغدروا بها ليلاً وثاروا فيها** " (18) . ويضيف أحمد الأنصاري فيقـــــــول : " **وكان الجنويون يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وأضمروا غزوها فوافو مرساها ســـنة 755 هـــ [1354 م] ... ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم** ... " (19) . إن خطة الهجوم وضعت في جنوة وحتى لا يثيروا ريبة أهلها فهم إذا ما أقبلوا عليها بكامل أسطولهم تواعدوا على أن يكون مرساها هو نقطة التجمع ، وتقـــول هذه المصادر عن هذه الخديعة بأن الجنويين أظهروا انهم تجار فصدقـــهم أهلها (20) دون أن تتعرض لتفاصيل ، ولولا رواية ابن حجر العسقـــلاني التي أوردها لبقـــيت تفاصيل هذه الحيلة مجهولة , إذ يقول : إن الجنويين قدموا في مراكبهم بصفتهم تجاراً وهم في حقيقتهم مقاتلة ، وأرسلوا من قبلهم شيخاً مجرباً يتقن اللغة العربـــية يصفه بـــأنه ترجمان ، وذلك لاستطلاع أحوال البلاد من ناحية ، ثم للاتصال بمن فيها من النصارى لكســـب عونهم على إنجاز مهمتهم من ناحيةٍ ثانية ، (21) وبـــالفعل تمكن المذكور من إنجاز هذين الشقّين من مهمته , فاتصل بالنصارى المقيمين بطرابلس واستمد منهم المعلومات اللازمة له بعد أن أطلعهم على ما اعتزمه صحبه من غدر ، وعبأهم لمساندة المهاجمين حين ساعة الصفر ، كما درس أوضاع أهل المدينة حيث تبين له ما كانوا يعانونه من الغلاء لقلة الحبـــوب عندهم (22) ، نظراً لظروف الوباء والمجاعة التي كانت آثارها لازالت ماثلةً ، فاستغل هذه الظاهرة أحسن استغلال في إنجاح الشق الثالث من مهمته المتمثلة في مخادعة الوالي ثابت

18- ابن خلدون , المصدر السابق , جـــ6 , ص 468 , 538 .

19- أحمد بك النائب الأنصاري , المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب , مكتبة الفرجاني , طرابلس - ليبـــيا , (د.ت) , ص 166 .

20- ابن خلدون , المصدر السابق , جـــ6 , ص 468 , 538 . و الأنصاري , المصدر نفســـه , ص 166 . و الزركشـــي , المصدر السابق , ص 94 .

21- ابن حجر العسقلاني , الدرور الكامنة في أعيان المائة الثامنة , الجزء الثاني , حققه وقدم له ووضع فهارسه , محمد ســـيد جاد الحق , دار الكتب الحديثة , القاهرة 1966 , ص 64 , انظر : أيضاً الطاهر الزاوي , المرجع السابق , ص 263 .

22- ابن حجر العسقلاني , المصدر نفسه , جـــ2 , ص 64 .

أبن محمد ، إذ أنه سعا لمقابلته حيث نجح في إقناعه – ربما بمساعدة تجار النصارى المقيمين في المدينة – بأن الجنويين قد قدموا إلى طرابلس بـطعام وسـلع ولكنهم متخوفون من النزول من مراكبهم إلى البر ، ولذلك فهو يشير على الوالي بأن يجمع الأسلحـة من أهل البلاد حتى من الجند ويحفظها عنده في القلعة ليطمئن الجنويون وينـزلون بضاعتهم من المراكب ، وإمعاناً منه في إقناع ابن ثابت للموافقة على هذا الطلب أثار طمعه فأوهمه أن هؤلاء التجار قد قدموا بسلع كثيرة مما يجعل نصيبه متماثل في عائدات الخمس مبلغاً كبيراً ، وفي الوقت نفسه ينتفع أهل البلاد من تلك السلع (23) لاسيما المواد الغذائية التي هم في أمس الحاجة إليها فيعمهم الرخاء .

فانطلت الحيلة على ابن ثابت وقام بتجريد أهل البلاد والجند من أسلحتهم ووضعها عنده في القلعة ، فلما تأكد الجنويون أن البلد أصبحت عزلاء من السلاح ، شـرعوا في تنفيذ مهمتهم ، وزيادة في حبك هذه الخديعة أنزلوا من مراكبهم بعض السلع لإشـاعة الاطمئنان في نفوس أهل البلد ، فاستبشر هؤلاء بها وأسـرعوا إلى شـرائها منهم(24) ، واطمأنوا إليهم وأغفلوا مراقبتهم ، الأمر الذي جعل الجنوين ينتشرون في البلد وكأنهم في حواجهم حتى عرفوا عوراتها ونقاط الضعف فيها وأخذوا مراكزهم في نواحيها ، وفي ليلة العاشر من ربيع الأول سنة 755 هـ / 7 إبريل سنة 1354 م صعدوا إلى سـور البلد وأهلها نيام حيث تخلصوا من حراسها بسرعة وفتحوا الأبواب ونادوا بـالحرب ،فلم يشعر أهل طرابلس إلاّ والجنويين قد خالطوهم في داخل المدينة يقـاتلونهم كيفما شاؤوا فلم يكن همهم إلاّ النجاة بعد أن حيل بينهم وبين أسباب الدفاع عن أنفسـهم بتجريدهم من السلاح،(26) فقُتل منهم من قُتل وأسر من أسـر فيقـول الزركشـي :

23- المصدر نفسه , ص 64 .

24 – المصدر نفسه والصفحة نفسها , وانظر : أيضاً ممدوح حسين , المرجع السابق ص 506 .

25 – ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 538 , أحمد الأنصاري , ص 166 .

26 – ابن خلدون , نفس المصدر , ص 469 , 538 , الزركشـي , المصدر السابـق , ص 94 , أحمد الأنصاري , المصدر السابق , ص 166 – 167 .

" **وأسر النصارى جميع أهل البلاد ...** " (27) **وهذه مبالغة واضحة من الزركشي ، إذ سقط كثير من أهلها قتلى بسيوف الجنويين ، وفي ذلك يقول المقريزي : " وقتل عامة أهلها ...**" (28) ، وفر من قدر منهم على النجاة ولكن ليقع في أيدي بني هلال وبني سليم الذين لم يكونوا على مستوى المسؤولية هذه المرة ، فبدلاً من أن يسارعوا لنجدة إخوانهم والتصدي للعدو المشترك كما فعلوا إبان هجوم جورج الانطاكي على مدينة طرابلس والاستيلاء عليها في عهد نورمان صقلية سنة 541 هـ / 1146 م(29) ، وجدوا في الفارين من المدينة غنيمة باردة ، فقتلوا وسلبوا الكثير منهم . وسيطر الجنويون على المدينة فنهبوا ما فيها من أموال وأمتعة ونقلوها مع الأسرى والسبايا إلى جنوة بينما أقام بعضهم في طرابلس(30) . وأما واليها ابن ثابت ، فإنه عندما رأى جند الجنويين يحاصرون قصره ويضيقون عليه الخناق ، لم يكن أمامه إلا العمل على الهرب ، ويبدو أن الجنويين كادوا يعجلونه حتى عن ذلك ، فيقول ابن حجر : " **أنه تدل من القصر بعمامته ...**"(31) ، ولجأ إلى قبائل الجواري وهم من عرب ذياب الهلالية ، فقبض هؤلاء عليه وقتلوه هو وأخوه عمار لدم كان قد أصابه فيهم(32)، فنال بذلك جزاءه نتيجة طمعه الذي دفعه إلى الثقة بعدو غادر مما جعل تلك الكارثة تحل بمدينة طرابلس وأهلها في حين

---

27 - الزركشي المصدر السابق , ص 94 .

28 - تقي الدين أحمد بن علي المقريزي , السلوك لمعرفة دول الملوك , الجزء الثالث , القسم الأول , تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور , القاهرة 1970 , ص 21 .

29 - لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر : رمضان المبروك خليفة , احتلال نورمان صقلية لجزر ومدن ساحل إفريقية من طرابلس الغرب إلى عنابة غرباً (529 - 555 هـ / 1135 - 1160 م) , رسالة ماجستير كلية التربية , جامعة الفاتح , 1987 , ص 90 - 95 .

30 - ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 469 , 538 , إحسان عباس ومحمد بحم , المرجع السابق , ص 153 - 154 , الطاهر الزاوي , المرجع السابق , ص 262 - 263 , العسقلاني , المصدر السابق , جـ2 , ص 65 .

31 - العسقلاني , المصدر نفسه , ص 65 .

32 - ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 538 , الزركشي , المصدر السابق , ص 94 , أحمد النائب , المصدر السابق , ص 167 .

تمكن أخوان له من الهرب إلى الإسكندرية(33).

وقد اختلفت المصادر العربية الإسلامية في تحديد السنة التي تمت فيها هذه الغزوة لمدينة طرابلس ، إذ أن المقريزي يذكرها في حوادث سنة 756 هـ / 1355 م(34)، ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار(35)، وحاجي خلفة(36) ،والوزير السراج(37)، الذين يجمعون على أنها كانت في تلك السنة ، وأما ابن حجر العسقلاني فيقول إنها كانت في سنة 756 هـ / 1355 م أو سنة 757 هـ / 1356 م(38)، في حين أن ابن خلدون يقول إنها كانت في سنة 755هـ /1354 م دون تحديد اليوم والشهر(39)، ويؤيده في ذلك ابن الشماع والمعسكري وأحمد الأنصاري(40)، بينما يذهب الزركشي في روايته إلى ابعد من ذلك فيحدد تاريخ تلك الحادثة بدقة فيقول إنها كانت في يوم العاشر من ربيع الآخر سنة 755 هـ / أبريل سنة 1354 م ، والأرجح في رأينا رواية ابن خلدون ومن قال بقوله لأن ابن خلدون لم يكن معاصراً لتلك الأحداث فحسب ، وإنما كان قد بدأ حياته السياسية أيضاً في بلاط السلطان الحفصي إبراهيم ابن أبي بكر ، فلابد أن يكون قد اتطلع عليها ووعاها جيداً ومادامت رواية الزركشي تتفق مع رواية ابن خلدون في تحديد السنة لانه عاش في عصر ليس بالبعيد عن تاريخ تلك الحادثة ومن عاصرها ، فلا يستبعد أن تكون هذه الدقة منه صحيحة ، وأما الروايات التي أوردت الرأي الآخر فيبدو أنها

---

33 - ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 538 , أحمد الأنصاري , المصدر السابق , ص 167 . 34 - المقريزي , المصدر السابق جـ3 ق1 , ص 21 .

35 - محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار , المؤنس في أخبار افريقيا وتونس , تحقيق وتعليق محمد شمام , المكتبة العتيقة , تونس 1967 , ص 149 .

36 - حاجي خليفة , تقويم التواريخ ," مخطوط بالمتحف البريطاني" , ورقة 52 , ممدوح حسين , المرجع السابق , ص 507 .

37 - محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج , الحلل السندسية في الأخبار التونسية , تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة , الدار التونسية للنشر , تونس 1970 , جـ1 ق4 , ص 1061 .

38 - العسقلاني , المصدر السابق , جـ2 , ص65 . 39 - ابن خلدون المصدر السابق , جـ6 , ص538 .

40 - محمد بن أحمد ابن الشماع , الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية , تحقيق وتقديم محمد المعموري , الدار العربية للكتاب , ليبيا - تونس 1985 , ص 102 - 103 , محمد بن أحمد أبو راس المعسكري , عجائب الاسيار ولطائف الأخبار , مخطوط المكتبة الوطنية بتونس , رقم 262 ورقة 59 , أحمد النائب الأنصاري , المصدر السابق , ص 166 .

كتبت في عصر متأخر باستثناء رواية ابـــن حـــجر ورواية المقـــريزي وهما من مؤرخي المشارقة ، وللتوفيق بين قوليهما والرواية الأخرى فمن الأرجح أن الأخبـــار وصلت إلى مصر متأخرة عن زمنها الحقيقي فسجلها المشارقة على أنها تمت حين علمهم بها . ومهما كان الأمر فإن الجنويين نهبوا ما في مدينة طرابلس من أموال وأمتعة وحملوها في ســـفنهم مع الأسرى والسبايا إلى جنوا بينما أقام بعضهم في طرابلس .

كما أن الروايات العربية الإسلامية تشير بعد سيطرة الجنويين على طرابلس إلى ذكر المفاوضات التي دارت بينهم وبين أبي العبـــاس أحمد بـــن مكي(747 - 748 هـــ / 1346- 1347 م) دون التحدث عن المقاومة من قبـــل أهل طرابـــلس ، مع العلم أن استيلاء النصارى على مدينة طرابلس دام مدة تزيد عن الأربعة أشـــهر ، فهل اســـتكان سكان المدينة للغزو و لم يحاولوا القـــيام بـــأي نوع من المقـــاومة لطرد الغزاة ؟ إن جُل الروايات العربـــية الإســـلامية تحجب هذا الأمر ، ولكن يمكن الاســـتنتاج من رواية الزركشـــي أنه كان هناك ثمة محاولات لقـــتال الأعداء ، فهو يقـــول في وصفه لخروج الجنويين من طرابلس : " **وتركوها خاليةً خاوية والعرب [بني هلال وبني ســـليم] في أثناء ذلك يريدون من أراد قتالهم من المسلمين إلى أن داخلهم ابن مكي** "(42)، ويؤيد الوزير السراج هذه الرواية بقـــوله : " ... **والعرب في أثناء ذلك يردون من يقـــدم من المسلمين لفكها إلى أن داخلهم ابن مكي** "(43)، ويبدو من هذين النصين أنه كان هناك محاولات من سكان طرابلس لتحريرها من الغُزاة ، ولكن موقف القبائل العربية من بـــني هلال وبني سليم الســـلبي من هذه المحاولات هو الذي حـــال دون أن تؤدي إلى نتيجة ملموسة . ولا ينبغي أن يفسر هذا الموقف السلبي منهم على أنه تخاذل منهم أو تعاون مع الجنويين ، بل إن ذلك يعود إلى التنافر الذي كان بين القبائل البدوية وأهل المدن سببـــها الفوضى والفساد اللذين عمّا إفريقية في ذلك الوقت فالقبائل العربية البدوية يعتدون على

41 - الزركشي , المصدر السابق , ص 94 .

42 - المصدر نفسه .

43 - الوزير السراج , المصدر السابق , جـــ1 ق4 , ص 1062 - 1063 .

المدن ، وأهل المدن يمنعون هؤلاء من الدخول إلى مدنهم ، حتى إنهم كانوا في أحيان كثيرة يمنعونهم من الميرة ، بل وينتهزون أي فرصة تسنح لهم ويفتكون بمن استطاعوا التغلب عليه ممن يدخل في مدنهم منهم ، ولعل تحامل المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة الواضح وكلهم من أهل المدن ومن بينهم ابن خلدون على بني هلال وبني سليم لدليل أخر على هذا النفور ، ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يعتبر مبرراً لهذا الموقف السلبي الذي وقفته القبائل العربية البدوية الذين أفشلوا محاولات التحرير للمدينة إن صحت روايتا الزركشي والوزير السراج .

ومهما يكون الأمر فقد بقي الجنويون في مدينة طرابلس إلى أن دخل معهم أحمد بن مكي صاحب مدينة قابس في مفاوضات لاجلائهم عنها ، فاشترطوا عليه أن يدفع لهم خمسين ألف دينار ذهبا(44). بينما يجعلها أحمد الأنصاري خمسين ألف مثقال من الذهب في حين أن ابن الشماع قال خمسين ألف دينار(45) ، في حين لم تحدد الروايات الأخرى الوحدة واكتفت بالقول من الذهب والعين ، وذلك مقابل انسحابهم من مدينة طرابلس . وقبل أحمد بن مكي هذا الشرط وأرسل يستعين بالسلطان المريني صاحب المغرب الأقصى بأن يبعث إليه هذه المبالغ إلاّ أن الجنويين استعجلوه في إنجاز الدفع فدفع لهم ما كان لديه واستوهب باقي المبلغ من أهل قابس والجريد والحامة الذين جمعوه له حسبة ورغبة في عمل الخير ، ودفعه ابن مكي للجنويين فسلموه طرابلس واقلعوا عائدين إلى بلادهم في يوم 12 شعبان سنة 755 هـ / أغسطس 1354 م بعد أن أقاموا فيها حوالي خمسة أشهر(46) ,فصار ابن مكي واليا عليها واتخذها عاصمة لولايته وضل فيها حتى وفاته .

44 - ابن خلدون , المصدر السابق , جـ6 , ص 538 , ممدوح حسين , المرجع السابق , ص 509 , الزركشي , المصدر السابق , ص 94 .

45 - أحمد الانصاري , المصدر السابق , ص 167 , ابن الشماع , المصدر السابق , ص 103 .

46 - الزركشي , المصدر السابق , ص 94 , وتجدر الإشارة إلى أنه ذكر إن هذه الإقامة دامت أربعة أشهر , ولما كان قد ذكر في روايته أن استيلاء الجنويين لطرابلس كان في 10 ربيع أول كما سبق ذكره وخروجهم منها كان في 12 شعبان كما يقول في هذا الموضوع , فإن ذلك يعني أن هذه الإقامة كانت حوالي خمسة أشهر وليس أربعة أشهر , وبذلك يتفق مع رواية ابن الشماع ,

وبعث أبو عنان بالمال لابن مكي بعد ذلك مع أبي عبد الله بن مرزوق وأبي عبد الله محمد بن سيد الناس وطلب منه أن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد هو بمثوبتها وذكرها فلم يقبل أحد أن يسترجع هبته إلا البعض منهم(47) ، ووضع المال عند ابن مكي كي ينفقه في إصلاح شؤون مدينة طرابلس ، ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل المقريزي يقول إن أبا عنان " **اشتراها من الفرنج بمال كبير وعمرها** "(48) . فكان ذلك نهاية حوادث هذه الحملة الغادرة .

والذي يلفت الانتباه في هذا الموضوع هو أن الجنويين بالرغم من استيلائهم على طرابلس ، فإنهم لم يتخذوها قاعدة للتوسع ، بل فاوضوا ابن مكي على افتدائها منهم بالمال مما يعيد إلى الذهن نتيجة الحملة على المهدية سنة 480 هـ / 1087 م حينما أخذوا هم وحلفاؤهم فدية ضخمة من أميرها تميم بن المعز وانسحبوا منها(49) . فهل كان هدف الجنويين من هذه الحملة هو الغنيمة فقط ؟ أي أنها كانت عملاً من أعمال القرصنة على مستوى أكبر من العادي ، أم أن هدفها كان أكبر من ذلك ولكن الظروف لم تتهيأ لتحقيقه ؟ وللإجابة على هذا التساؤل يجب أن ندرس في إمكانيات جنوة وقدراتها ، إنه مما لا شك فيه أنها كانت تدرك أن إمكانياتها ولاسيما البشرية لا تمكنها من الاستقرار والتمركز في طرابلس ، وهي من باب أولى اعجز عن القيام بأي توسع مستقبلي في إفريقية الحفصية ، إذن فما الذي دفعها إلى هذه المغامرة ؟ إن ما نلاحظه في هذا الموضوع أن جنوة كانت تأمل في بيع هذا الانتصار لإحدى القوة الصليبية الكبرى التي تملك الإمكانيات المادية والبشرية التي كانت تنقصها مقابل أن تفوز هي منها

ص 103 . ورواية ابن أبي دينار ، ص 149 . ورواية الوزير السراج ، ص 1061 الذين قالوا إنها كانت خمسة أشهر ، الأرجح إن الخطأ في احتساب المدة جاء من الناسخ ، أما ابن خلدون والمقريزي والمعسكري فلم يتطرقوا لذكر المدة . انظر : ممدوح حسين ، المرجع السابق ، ص 510 هامش 3 .

47 - الزركشي ، المصدر السابق ، ص 94 ، ابن خلدون المصدر السابق ، جـ6 ، ص 538 ،أحمد الأنصاري ، المصدر السابق ، ص 167 .

48 - المقريزي ، المصدر السابق ، جـ3 ق1 ، ص 21 .

49 - لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع ، انظر : رمضان المبروك خليفة ، المرجع السابق ، ص 54 - 57 .

بامتيازات تجارية ، أي أن تحصل على المكاسب التي تبتغيها دون أن تتحمل عبء الحرب المتوقعة مع العرب المسلمين ، ولعل في النتيجة التي الت إليها الحملة على جزيرة جربة سنة 790 هـ / 1388 م والتي أسهمت فيها جنوة بأكبر نصيب وما أملته من حملة لويس الثاني دي بريون على مدينة المهدية سنة 792 هـ / 1390 م(50) خير دليل على صحة هذا القول ، ولكن ظروف أوروبا الغربية في ذلك الوقت لم تساعد جنوة على الوصول إلى مبتغاها ، فالقوتان الكبيرتان والمتمثلة في فرنسا وإنجلترا دخلتا في ذلك الوقت بالذات في معارك طاحنة فيما بينها في إحدى مراحل حرب المائة عام ، علاوة على أنهما كانتا تعانيان وقتئذ من أزمات اقتصادية واجتماعية حارة خلفها وباء الموت الأسود(51) ، وينطبق نفس الأمر على مملكة أرغونة التي كان النزاع بينها وبين قشتاله محتدماً في تلك الآونة ، فضلاً عن أن النزاع الذي كان قائما بين أرغونة وجنوة على ملكية سردينيا وكورسيكا كان يفرض على الأخيرة التحفظ في عرض مدينة طرابلس على ارغونة ، وحيال هذه الظروف شعرت جنوة أنها ستغادر طرابلس إما أجلا أو عاجلا ، فلا أقل إذن من أن تكسب الفدية لا سيما وأن ظروفاً لم تكن في حسبانها قد بدأت تستجد على ساحة إفريقية الحفصية وهي تباشير الزحف المريني الثاني عليها إذ كان أبو عنان قد هاجم القسم الغربي من إفريقية واستولى على بجاية سنة 755 هـ / 1354 م(52) ، وأخذ يدعم نفوذه في تلك النواحي ويتأهب لمواصلة زحفه الأمر الذي قام به بعد تلك الحملة بفترة وجيزة كما سبق ذكره ، فسيطرة أبي عنان على غرب إفريقية الحفصية ليس في صالح الجنويين ، إذ لو استمر في زحفه ووحد المغرب العربي الإسلامي فإنه سيوجه جهوده نحو مدينة طرابلس وينتزعها من الجنويين ، ولا يستبعد أن يكون أبو عنان قد فكر في ذلك بالفعل ، الأمر الذي يفسر تأخره في إرسال المال إذ أنه لم

50 – بخصوص الغزو الصليبي لجزيرة جربة ومدينة المهدية . انظر : ممدوح حسين , المرجع السابق , ص ص514– 579.

51 – عن أثار وباء الموت الاسود على أوروبا انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور أوروبا العصور الوسطى , جـ1 , ط5 , مكتبة الانجلو المصرية , القاهرة 1972 , ص 496 – 497 .

52 – انظر: الزركشي , المصدر السابق , ص 94 , ابن الشماع المصدر السابق , ص 102 – 103 .

يرسله إلاّ بعد رحيل الجنويين عن طرابلس ولعل هؤلاء شعروا بذلك مما جعلهم يتعجلون ابن مكي في دفع الفدية لهم ، ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره محمد بن أحمد المعسكري حيث يقول : " **ثم تعجلوا عليه [أي ابن مكي] لما خافوا من أبي عنان يغزيهم** "(53) ، لذلك فإن النتيجة الظاهرة أخفت الأهداف الحقيقية للحملة .

والذي يلفت الانتباه أيضا في هذا الموضوع هو لماذا طلب ابن مكي المال من السلطان المريني أبي عنان و لم يطلبه من السلطان الحفصي ؟ يبدو أن ذلك الأمر يعود إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط ابن مكي بالمرينيين حيث إنه كان رجلهم المعول عليه في إفريقية ، بعكس ما كان عليه حاله مع الحفصيين حيث إن علاقته بهم كانت سيئة إلى حد العداء ، وكانت هذه العلاقة السيئة بين الحفصيين وأسرة ابن مكي ليست بالأمر الجديد أو المستحدث ، وإنما تعود إلى ما قبل ذلك بكثير ، ذلك أن أمراء هذه الأسرة كانوا يطمحون إلى الاستقلال ، وكان احمد بن مكي يحاول اغتنام أي فرصة لشق عصا الطاعة على الحفصين ، ولذلك ما أن علم بعزم أبي الحسن المريني على الزحف على إفريقية حتى أسرع إليه على راس وفد من قسطيلية وبلاد الجريد حيث لقيه بوهران وتقدم إليه بالبيعة ، وحفظ له أبو الحسن هذا الجميل فقابله هو وصحبه بالبر والإكرام وعقد لهم على أمصارهم ، وصرفهم إلى أعمالهم إلاّ ابن مكي فإنه اسطحبه ليكون عوناً له ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : " **وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابة ، وفي جملته...**"(54) ، وفعلاً كان خير عون له في إفريقية حتى إنه حينما دخل تونس وفر منها السلطان الحفصي أبو حفص ، وأتبعه أبو الحسن بعرب أولاد أبي الليل الذين لحقوا به وهزموه وفرت فلول جيشه بعد مقتله الى قابس ، ثم قام عبد الملك بن مكي بالقبض على أصحاب السلطان الحفصي المقتول مثل أبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين وصديق ذلك السلطان ، وصخر بن موسى شيخ بني مسكين زعيم قبيلة سدويكش وغيرها من القبائل وأرسلهم مقرنين

53 - المعسكري , المصدر السابق , ورقة 59 .

54 - ابن خلدون , المصدر السابق , جـ7 , ص 318 .

في الأصفاد إلى أبي الحسن(55) ، وظلت علاقة الود بين ابن مكي والمرينيين قائمة حتى بعد رحيل أبي الحسن عن إفريقية حيث اتصلت بعد ذلك بينه وبين ابنه عنان سلطان بني مرين الجديد ، في حين ازدادت علاقته سوءاً بالسلطان الحفصي اذكتها الكراهية التي كانت مستحكمة بينه وبين تفراجيين حاجب السلطان(56) .

وعند هجوم الجنويين على طرابلس سنة 755 هـ / 1354 م كان أبو عنان قد بدأ يعد العدة لزحفه على إفريقية الحفصية كما ذكرنا سابقا ولا بد أن ابن مكي كان يدرك عزم أبي عنان على ذلك الأمر لذا اتصل بالسلطان الذي يدين له بالولاء من ناحية ، ثم إنه أراد تخليص إفريقية من هذا الخطر لتكون خالصة لأبي عنان من ناحية أخرى وهو في غضون ذلك يحقق مطامعه في تأسيس ولاية كبيرة بضم مدينة طرابلس ونواحيها إلى ولايته من ناحية ثالثة . وقد تم له ما أراد فقد ضمها أبو عنان إليه وعقد له عليها في حين عقد لأخيه عبد الملك بن مكي على قابس(57) ، فانتقل أحمد بن مكي إثر ذلك إلى طرابلس واتخذها مقراً لإمارته وبذلك أصبح معظم شرق إفريقية خاضعاً لأبي عنان في حين أنه كان قد بسط نفوذه على معظم قسمها الغربي و لم يبق منها خارجاً عن طاعته إلا وسطها وجنوبها اللذان سيحاول بسط نفوذه عليها بعد ذلك بثلاث سنوات أي سنة 758 هـ / 1357 م والذي يلفت النظر أيضاً حول هذا الموضوع هو موقف السلطان أبي إسحاق إبراهيم من هذه الحملة والدوافع التي جعلته يتخذ موقفاً سلبياً منها . إن هذا السلطان كان صغير السن الأمر الذي جعل حاجبه الداهية ابن تفراجين يستبد بالأمور حتى كان حاله معه أشبه ما يكون بالمحجور عليه ، وكانت الأمور قد اضطربت على هذا السلطان إلى حد كبير ، فالفتن الداخلية كانت لا تزال محتدمة ، والخطر المريني كان قد بدأ يهدده(58) ، وبالإضافة إلى ذلك أصيبت إفريقية الحفصية في سنة 755 هـ /

55 - المصدر نفسه , ص 319 - 320 , ممدوح حسين , المرجع السابق , ص 512 .

56 - ابن خلدون, المصدر نفسه , جـ6 , ص 464 - 465 , ممدوح حسين , المرجع نفسه , ص 518 .

57 - الزركشي , المصدر السابق , ص 95 .

58 - المصدر نفسه , ص 479 , 483 .

1354 م بالقحط الأمر الذي كان يهدد بتفشي المجاعة فيها ، وما يصاحب المجاعة من تفشي الأمراض والأوبئة ، فارتفعت أسعار المواد الغذائية في تونس على وجه الخصوص ارتفاعاً كبيراً ، وفي ذلك يقول الزركشي : " **وفي سنة خمس وخمسين [755هـ] ارتفع سعر الطعام بتونس إلى أن بلغ سعر القفيز من القمح أحد عشر ديناراً ذهباً والشعير إلى النصف من ذلك** "(59) ، وحيال هذه الظروف عجز السلطان أبي إسحاق الحفصي عن بذل أي مجهود لإنقاذ طرابلس ، ومع ذلك فإن هذا لا يعفيه من المسؤولية ، وكان الواجب يحتم عليه أن يحاول بأقصى ما يستطيع للتصدي للحملة لاسيما وأن سكان إفريقية على اختلاف ميولهم كانوا على استعداد لدعم أية محاولة جدية يقوم بها السلطان لتحرير طرابلس ، يدل على ذلك الموقف النبيل الذي وقفه أهل قابس والحامة وبلاد الجريد حينما دفعوا أموالهم عن طيب خاطر لابن مكي - وهو ما طلب منهم - من أجل افتدائها ، ورفضوا إلا القليل منهم أن يستردوا ما دفعوه جاعلين ما أنفقوه هو في سبيل الله ، فكان على أبي إسحاق أن يحاول إنقاذ طرابلس بدلاً من موقف المتفرج الذي اتخذه ، ولا يعفيه من هذه المسئولية أن طرابلس كانت آنذاك خارجة عليه ، ذلك أن خروج والٍ على سلطانه لا يعطي ذلك السلطان المبرر لجعل جزء من بلاده طعمة للأعداء ، يستولون عليها ويقتلون ويأسرون من أهلها كيفما شاءوا ثم ينهبونها ، وأما ابن مكي فكان الأجدر به أن يحررها بحد سيفه كما يليق بالمسلم الحق أن يفعل بدلا من شرائها من العدو بالمال وعلى أية حال ، فقد شهد الصراع العربي الإسلامي مع الصليبيين في جبهة إفريقية الحفصية بعد هذه الحملة فترة من الهدوء النسبي لم يعكره إلا بعض أعمال القرصنة التي كان أهمها الهجوم على الحمامات سنة 760 هـ / 1359 م حيث تمكن المهاجمون من احتلالها ونهبها ، وأقاموا بها يومين ينقلون ما وجدوه فيها إلى سفنهم ثم انصرفوا عنها .

---

59 - الزركشي ، المصدر نفسه ، ص 95 .

الخلاصة :

إن استيلاء جنوة على مدينة طرابلس كان لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وجغرافية ، وقد ساعدهم على هذا الغزو ضعف الإمارة الحفصية في إفريقية بسبب الشقاق بينها وبين إمارة بني مرين في المغرب الأقصى إذاً فباستيلاء جنوه على طرابلس ذات الموقع الجغرافي الهام ما بين الشمال والجنوب كان بوسعها التخلص من الوسطاء في التبادل التجاري ، كان هذا الاتصال مصدر ربح كبير لجنوة .

إن استيلاء جنوة على مدينة طرابلس مكنها من السيطرة على البحر المتوسط . إلا أن ظروف جنوة الداخلية وأوضاع القوة الأوروبية في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لم تتح لجنوة الاستفادة من استيلائها على طرابلس الغرب سنة 755 هـ / 1354 م ، فاضطرت لأخذ الفدية والانسحاب منها . وتبعا لكل ذلك فشلت الحركة الصليبية في تحقيق أهدافها في المغرب العربي الإسلامي .